اعترافات اندريه جيد

«وما بقي الآن فهو عندك»

بقلم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد

مشكلة الصراحة او التعبير الصادق في الانتاج الفني مشكلة قديمة وحديثة معاً ، وستظل كذلك ما بقي للمجتمع البشري وعي اخلاقي تقليدي مسيطر . فالمجتمع هو الرقيب الأول على النشر الفني الذي يشمل النشر الأدبي وهو ما يعنينا في هذا المقال . المجتمع هو الذي يضع القيود الحاظرة على الأديب أن يكشف عما يحس به حقاً في قرارة نفسه ، وما يؤمن به . وهو الذي يضع القيود الحاظرة على الاديب ان ينشر للناس حقيقة نفسه ، وأخلاقه ، وسلوكه الخفي الذي لا يعرفه إلا هو او اقرب الناس اليه . وسيظل الادب — والفن كذلك وهو اشمل من الادب — في نظر الباحث الناقد زيفاً سطحياً ناقصاً ما ظل الادب في حدود الدائرة الاخلاقية والتقليدية التي رسمها له المجتمع فلا يتعداها . أما هذه الدائرة فتصغر وتكبر ، او تقوى وتضعف من مجتمع لمجتمع ، ومن عصر لعصر . وما دام الاديب ينشر ما يرتضيه المجتمع فهو إذاً يخفي عن هذا المجتمع نفسه نواحي بشرية واقعية يعرفها الناس ويهمسون بها في الخفاء ، ولكنهم يخشون إعلانها . ولتبسيط هذه القضية نقول : ان نفس الاديب الاجتماعية المثالية Super ego تحظر على نفس الاديب الفطرية ego ان تكشف للمجتمع عن حقيقتها . والصراع دائم بين النفسين ، وأيهما انتصرت هزمت الاخرى . ويعتبر المجتمع ثائرين في ميدان الادب والفن اولئك الذين يخرجون على مقاييسه الاخلاقية التقليدية . والمجتمع في هذه الحال يحاسبهم ويحاكمهم ، فإن كانوا ممن يدخلون تحت طائلة القانون طبّق عليهم القانون ، وإن لم يستطع ان يطبق عليهم القانون وصمهم بالشذوذ الاجتماعي .

ولو تتبعنا ما كتبه الافراد عن سير حيواتهم لوجدنا بها نقصاً كبيراً هو خلوها عادة من النواحي الشخصية التي تتصل بعلاقاتهم الجنسية مثلاً ، او آرائهم الدينية والسياسية الخطيرة . وما ينشر من اليوميات عن حياة اصحابها يقتطع منه عادة كثير من الوقائع التي قد تثير نقد المجتمع او غضبه . والناقد الادبي يدرك تماما ان ما قطع من المذكرات او اليوميات جزء حيوي لا غنى عنه إن اردنا صورة صحيحة لما يجري في المجتمع .

والادب العربي فقير كل الفقر في هذه الناحية ، ناحية التعبير الصادق الصريح ، لأسباب قد نعود الى درسها ، والقليل من الكتّاب لديهم هذه الصراحة الادبية ، نذكر منهم المازني وطه حسين وتوفيق الحكيم . وهؤلاء لم ينشروا من الأدب الشخصي الصريح إلا القليل . ويظهر ان الادب الجاهلي كان اقرب الى الصراحة الفطرية من أدب أي عصر آخر . ألم يصل الينا قول الشاعر :

تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيري ، يا امرأ القيس ، فانزلِ
فقلت لها سيري وارخي زمامه
ولا تبعديني من جناك المعلل
فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذي تمائم محول
إذا ما بكى من حولها انصرفت له
بشق وتحتي شقها لم يحول ؟

ويعد مؤرخو الآداب الاوروبية « اعترافات روسو » اول كتاب نشر يضم اخباراً صريحة ، ووقائع صادقة ، من حياة المؤلف نفسه دون إخفاء او مواراة . ولقد احدث نشر هذه الاعترافات هزة قوية في الأوساط الأدبية في ذلك الوقت ، ولازالت بعض الهيئات التعليمية تمنع النشء من قراءته . وكان روسو الذي وضع الاساس للتربية الفردية التلقائية الحرة هو الذي ضرب المثل الاول للأدباء في التعبير التلقائي الصريح . وكأنما احس بأن اعترافاته ستثير سخط المجتمع عليه فقال في مطلعها : « لقد نويت ان اقوم بمشروع لم يسبقني اليه سابق [1] ، مشروع متى تم لن يقوم بمحاكاته احد . ذلك هو ان اعرض على بني جنسي صورة صادقة واقعية لانسان هو انا » . ولكن تكهن روسو لم يتحقق ، فقد حاكاه في هذا النهج الصريح في

(١) نعم سبقه الى نشر سير الحياة والاعترافات كاتبان هما سنت اوجستين في اعترافاته ، وسنتا تريزا في كتاب حياتها . ولكن هذين الكتابين لم يؤلفا بقصد اعلان الحياة الشخصية السرية لاصحابها ، بل ليكونا مثلاً دينياً صالحاً للقراء ، وليعرضا للناس الحياة الدينية التي سعد بها المؤلفان ، فهما اذاً ليسا كتابي ادب وانما هما كتابا دعاية دينية .

التعبير كثير من الكتاب الاوروبيين امثال جوته وتولستوي ورسكن وجورج مور وبروست واندريه جيد .

وعنوان هـذا المقال « وما بقي الآن فهو عندك » (Et Nunc Manet In Te) هو عنوان آخر كتاب نشره اندريه جيد يتضمن اعترافات صريحة تتصل بحياته الزوجية وشذوذه الجنسي، مما لم ينشر قبل في بومياته ، ومما لم يرد نشره في حياة زوجته التي ماتت سنة ١٩٣٨ وقد اقتبس أندرية جيد هذا العنوان من بيت شعر يعزى لفرجيل هو :

poenaque respectus et nunc manet Orpheos in te

كانت مادلين روندو بنت عمته ، وكانت تكبره بسنتين . وقد امضيا ايام طفولتهما معاً يلعبان ويمرحان ، شأن الاطفال ، في ضيعة والدها . ولكن حادثاً محزناً كان نقطة التحول في حياتها . فلقد اكتشفت وهي في سن الرابعة عشرة ان امها كانت تخون اباها . وقد عرف سكان الضيعة هذا الامر ولاكته ألسنتهم . وكأنما أرادت الفتاة مادلين ان تنزوي عن العالم، فلا تواجه العار الذي اكتسبته امها ، فانطوت على نفسها ، وفرت من كل المجتمعات وانصرفت عن كل الناس إلا ابن عمتها أندريه، الذي زادت علاقتها به ، ووقفت اسرارها وخلواتها عليه . وقد احس أندريه في ذلك الوقت بميل مادلين اليه فأغرم بها إغرام مواساة وعطف ، وإعجاب بعقلها وخلقها . وقد نما هذا الاعجاب بمرور السنين فصار حباً ؛ حباً لا لمادلين نفسها ، ولكن لرجاحة عقلها واتزانها ووداعة خلقها ، ولم يكن حباً لجسمها أو جاذبيتها الجنسية . وإذاً فقد كانت مادلين ، وهي أكبر من ابن عمتها أندريه ، مثلاً أعلى له في العقل والخلق ، وكان تعلقه بها لهذه الخصائص . فلما ماتت امه في سنة ١٨٩٥ ، وكانت سنه ستاً وعشرين سنة ، شعر بفراغ كبير في حياته ، وبحاجته الى المرأة التي تحل محل امه ، المرأة التي يجد لديها الصدر الحنون ، والتي تعنى بحاجاته المنزلية ، والتي توفر له من وسائل الراحة والعطف ما كان يجده عند امه . لقد نظر حوله فلم يجد غير مادلين تستطيع ان تحل محل الأم . وكما يقول علماء النفس إن الرجل الذي كان ينافس اباه في حب امه اثناء طفولته ينقل هذا الحب الى زوجه عند الرجولة ، ويتوقع منها ما كان يتوقع من أمه في طفولته . وهكذا وجد أندريه جيد في مادلين بديل أمه أو مايسميه علماء النفس mother substitute عندما تزوجها في العام نفسه الذي ماتت فيه الأم .

كان اندريه جيد قد انحرف في صلاته الجنسية ، عند سن المراهقة . ومع انه صرح بهذا في بعض مؤلفاته وفي بومياته ، كما في « كريدون » ، وحاول ان يبرر هذا السلوك الشاذ بل ويدعو اليه باعتباره سلوكاً طبيعياً في حياة الانسان، نجده في مؤلفه الأخير هذا يعيد الحديث ويصرح بانه انغمس في هذا السلوك انغماساً مسرفاً حينما كان في احدى رحلاته بجنوبي تونس سنة ١٨٩٣ . ولم يكن اندريه جيد لوطياً فقط. بل كان كذلك مغرماً بالنساء . وهو يقول معترفاً : إنه أقدم على زواج مادلين وهو عارف بشذوذه وبإغرامه الجنسي المتشعب النواحي ، ولكنه كان يرجو ان يمنح زوجه مادلين قلبه وجسمه معاً . فهل نجح في هذا ؟ كلا لم ينجح ، لانه يعترف بان حبه لمادلين لم يكن حباً جنسياً جسمانيا ، ولم يشعر بجاذبية انوثتها له منذ اللحظة الاولى من زواجهما ، ولم يقع بينهما ما يقع بين الرجل والمرأة، وقد ادركت مادلين هذا كله، ولم تحتج او تثور .

اندره جيد

بل يذهب أندريه جيد الى ابعد من هذا فيصرح بانه حينما كان في روما يمضي جزءاً من «شهر العسل» مع مادلين كان يتركها وحدها تتنزه وتتفرج ، ويذهب هو يتصيد الارتستات من الايطاليات ويأخذهن الى الفندق بحجة تصويرهن عاريات بآلة التصوير الشمسي ، وهو فن كان به مغرما . ثم كان يُري زوجه تلك الصور العارية وما كانت تحتج او تثور . لم تكن زوجه جاهلة سلوكه مع هؤلاء الفتيات او عمياء عنه ، فلقد حدثها به صاحب الفندق — كما يقول أندريه جيد نفسه — ومع ذلك لم تثر . لقد كانت مادلين تحب أندريه بقدر ما كان يحبها هو ولكن حباً روحياً او عقلياً لادخل للجسم فيه . كان أندريه يشبع شهواته الشاذة والطبيعية بصور مختلفة ، أما مادلين فقد بقيت على وفائها لزوجها تقوم على حاجاته قيام الخادم المخلص الامين، وانصرفت — لتعوض عن هذا الحرمان

الجنسي – الى ناحية روحية في الحياة هي الناحية الدينيـــة ، وناحية البر بالمعوزين في الضيعة التي ورثتها عن ابيها ، ونشأت فيها مع أندريه ، ضيعة كوفيرفيل على ساحل نورماندي .

ويعترف أندريه جيد في كتابه هذا بانه بينما كان في القطار بشمال إفريقيا – أثناء « شهر العسل » – ومعه مادلين كان مسافراً معه في العربة نفسها ثلاثة صبيان فرنسيين أخذ أندريه يغازلهم ، وكانت مادلين تلاحظ كل هذا خلسة متجاهلة ، ولم تبد اعتراضاً او نقداً – كما يقول هو – حتى إذا انصرف الصبيان ، قالت له زوجه في نغمة مؤنبة « لقد كنت في سلوكك الشائن مع الصبيان كالمجرم او المجنون » .

لقد طرحت مادلين العلاقات الزوجيـــة الجنسية جانباً ، ولجأت إلى الحيلة الصامتة ، والعمل في المنزل والضيعة والكنيسة . وكأنها وجدت في كل هذا تعويضاً عما حرمته في حياتها الزوجية . وليس عجيباً ان لم تحاول مادلين خيانة زوجها – كما فعل هو علناً – فقد كانت الصدمة القاسية التي تلقتها في باكورة شبابها ، حين اكتشفت خيانة أمها ، وقد غمرتها بموجة من الحزن والعار جعلتها تنظر إلى هذه الخيانة الزوجية تصدر من المرأة على انها جريمة اخلاقية كبرى .

إن الدور الذي لعبتـه مادلين في حياة اندريه جيد ، قبل الزواج وبعده ، يعترف بـه هو حين يقول « لقد كانت ملهمتي في كل ما اكتب ، ولقد كانت تمثلها دائماً إحدى الشخصيات في رواياتي » . وليس من شك في ان القارىء لقصة « اللا أخلاقي » التي نشرت سنة ١٩٠٢ يدرك عند انتهائه من القصة أن « الميسا » تلك الزوجة التي انصرفت عن الحياة الزوجية ، وعن ابن عمتها وزوجها ، إلى العبادة وخدمـة الله ما هي إلا شخصية مادلين نفسها .

لقد ضم كتاب « ومـا بقى الآن فهو عندك » اعترافات اندريه جيد بأخطائه الزوجية ، وسجل فيه اعترافه بالاثم الذي ارتكبه نحو الملاك الذي وهبه القلب والروح والجسم ، فلم يقدر هذه الهبة وانكرها بأعماله الآثمة اثناء حياة هذا الملاك . انـــه يقول هذا وينشره بعد ان ماتت زوجه . ذلك لأنه نشر هذا الكتاب في سنة ١٩٤٧ ، سنة نيله جائزة نوبل . ومن الغريب انه لم يطبع من هذا الكتاب ، في هـذه الطبعة ، إلا ثلاث عشرة نسخة وزعها على الخاصة من اصدقائه ، كأنما اراد ان يتأكد قبل موته من ان خطاياه قد اعلنت وانه باعترافاته هذه قد يجد راحة الضمير ، او يتخذ بذلك وسيلة للتكفير عن سيئاته . ولكن اية فائدة حين يندم المرء ولات ساعـة مندم . وكأن اندريه جيد اراد الا تجزم بأن كل اخطائه قد اعترف بها في هذا الكتاب ، واراد ان يقول لزوجـه ، حين اختار عنوان الكتاب . هذه اعترافاتي « وما بقى الآن (من السر) فهو عندك » .

جامعة مانشستر — **عبدالعزيز عبدالمجيد**

ادفع دولاراً تقتل عربياً ! ...

كانت الواقعة التي اثرت في نفسي ، اكثر ما يكون التأثير ، ذلـك الصيف من عام ١٩٤٨ ، ان الانباء والتعليقات الخاصة بحرب فلسطين كانت متحيزة تحيزاً كاملاً . فقد بدا وكأن الصحف جميعاً لها مراسلون يمدونها باحداث القتال من تل ابيب . كان صوت اسرائيل قوياً جداً في الولايات المتحدة ، أما صوت بلاد العرب فكان صامتاً .

وكانت هذه الواقعة ابرز مـا كانت في زوايا الشوارع في نيويورك . فهناك نصبت مكبرات الصوت على السيارات الكبيرة او على المنابر ، وراحت تخور متوسـلة الى الاميركيين ان « يعطوا دولاراً ليقتلوا عربياً » . واحسب ان ذلك هو الذي دفعني الى ان اتخذ قراري . فقد ابدع العرب – وهذا ما كنت اعرفه من قبل – مدنية وحافظوا على حضارات . اما اليهود فلم يوفقوا الى شيء من ذلك البتة . وأنشأت اراجع الصحف والمجلات . فليس من شك في انها كانت مشوقة الى الوقائـع المتصلة بتلك الحرب . ولكن اني لها ان تعرف الحقيقة اذا لم تلم بوجهة النظر الاخرى المقابلة لوجهة نظر الصهيونيين ؟

وفي ذلك الحين كنت اعمل في « المعهد الاسيوي » في نيويورك ، وهدفاً لسهام الصهاينة ورجال الفكر الموالين للصهاينة . وعندما اعلنت ان العرب ينبغي ان تكون لهم وجهة نظرهم الخاصة في المشكلة ، ثارت من حولي ضجة مغضبة تصم الآذان ، وسجل ضغط الدم عندي ارتفاعـاً ملحوظاً . وواضح اني لو بقيت في نيويورك اذن لما كان ثمـة مفر من وقوع واحد من امرين : اما ان اسمح لنفسي ولمبادئي بان تغرق في تيار يهود نيويورك الغامر النابح ، وامـا ان اتسلح بقذائف قاتلة واهاجم مكبرات الصوت ، معرضاً نفسي للاعتقال والسجن ...

من مقدمة كتاب :

ادفع دولاراً تقتل عربياً ...

للصحافي الاميركي لورانس غريزوولد

وقد نفدت طبعته الاولى حال نزولهـا الى الاسواق واعيد طبعه من جديد .

الناشر : دار العلم للملايين